تطبيق (3): سوسير /ميه: منشأ الصّراع

يقول جان لويس كالفي «لقد بيّن أنطوان ميه (1886. 1936) في العديد من النّصوص الطابعَ الاجتماعي للغة أو بالأحرى قد حدّدها بوصفها ظاهرة اجتماعية. وهكذا اقترح في مقاله المشهور الموسوم **"كيف تتغيّر معاني الكلمات"؟** تحديدا لهذه الظاهرة الاجتماعية "مبيّنا في الوقت ذاته ودون غموض صدوره عن آراء عالم الاجتماع: إميل دوركايم E. Durkheim:

(...) "اللغة هي إذن ظاهرة اجتماعية بامتياز. وذلك أنّها واردة في التّحديد الذي اقترحه دوركايم، اللّغة توجد مستقلّة عن كلّ فرد من الأفراد الذين يتكلّمونها، وعلى الرّغم من أنّها لا تقوم بمعزل عن مجموع هؤلاء الأفراد، فإنّها مع ذلك، خارجة عنه (أي الفرد) من خلال عموميتها".

-"إنّ صفتي الخارجية عن الفرد والإكراه اللّتين يحدّد دوركايم بهما الظاهرة الاجتماعية تظهران إذن في اللّغة بداهة"[1].

درجتْ العادة على تقديم أ ميه بوصفه تلميذا لسوسير (1913 – 1987). في الواقع أخذ ميه في الابتعاد عنه منذ أن نشرت دروس سوسير بعد وفاته، وقد بيّن ميي في عرضه لهذا الكتاب بأنّ "سوسير، بفصله بين التغيّر اللّغوي عن الظروف الخارجية التي يتوقّف عليها، قد جرّده من الواقع، وحوّله بذلك إلى تجريد هو بالضرورة غير قابل للتّفسير"[2]. ذلك لأنّ مواقف ميه كانت مناقضة على الأقل لإحدى الثنائيات السوسيرية التي تميّز بين الآنية (synchronie) والزمانية (diachronie)، ومناقضة للجملة الأخيرة من الدروس **"**إنّ موضوع اللسانيات الوحيد هو اللسان في ذاته ولذاته" التي وإن لم تكن من وضع دي سوسير وتمثّل بالأحرى خلاصة النّاشرين، فإنّها تلخّص بشكل تامّ تعاليمه. إنّنا إزاء تناقض لأنّ الإقرار بالطّابع الاجتماعي للغة الموجود في جميع أعمال ميه تستلزم في الوقت

[1]- Antoine Meillet, comment les mots changent de sens, publié dans l'année sociologique, 1905 – 1906, repris dans linguistique générale, Paris. Champion, 1921, cité ici dans la réédition de 1965, p. 230.
[2] - Antoine Meillet, compte rendu du cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure, Bulletin de la société linguistique de Paris, p. 166.

عينه توارد (convergence) مقاربة داخلية ومقاربة خارجية لظواهر اللّغة ومقاربة آنية وزمانية لهذه الظّواهر نفسها.

فعندما يضع سوسير اللّسانيات الداخلية في مقابل اللسانيات الخارجية، فإنّ ميبه يجمعهما، وحين يميّز سوسير بين المقاربة الآنية والمقاربة الزمانية، فإنّ ميبه يسعى إلى تفسير البنية بواسطة التّاريخ. في الواقع، كلّ شيء يضع الواحد منهما في تضادّ مع الآخر متى مَوْقَعْنا أنفسنا في مجال اللسانيات العامة. ففي حين يسعى سوسير إلى صياغة نموذج مجرّد للّغة نجد ميبه تتنازعه الظّاهرة الاجتماعية والنّظام حيث يشدّ بعضه البعض الآخر: فبالنسبة إليه، لا يمكننا فهم الظّواهر اللّغوية دون الإحالة على الاجتماعي ومن ثمّ دون الإحالة على الزّمانية والتّاريخية.

حيّال الدّقة التي توخّاها ميبه لتحديد مفهوم الظّاهرة الاجتماعية، تثير الفقرات التي يصرّح فيها سوسير بأنّ اللّسان **"هو الجزء الاجتماعي من اللّغة"** (ص31 من دروسه) و**"اللسان مؤسسة اجتماعية"** (ص33 من المرجع نفسه) الاستغراب لما تنطوي عليه من غموض نظريّ. فكون اللّسان مؤسسة اجتماعية هو عنده مجرّد مبدأ عام، أو نوع من الدّعوة سيتلقاها بعده العديد من اللّسانيين البنويّين دون أن يتعاطوا الوسائل الاستكشافية التي تمكّنهم من الاضطلاع بهذا التّصريح: نسلّم بالطابع الاجتماعي للّسان ثمّ ننتقل إلى شيء آخر، إلى لسانيات صورية، إلى اللّسان "في ذاته ومن أجل ذاته**".** أمّا بالنّسبة إلى ميبه، فعلى العكس، فهذا التّصريح ينبغي أن تترتّب عنه مستتبعات منهجية، يجب أن تكون في صلب النّظرية اللّسانية: فاللّسان عنده [أي عند ميبه] هو في الوقت نفسه "ظاهرة اجتماعية" و"بناء يشدّ بعضه بعضا**"** ويحاول دوما الاحتفال بهذا التّحديد المزدوج.

المصدر: جون لويس كالفي، علم الاجتماع اللّغوي، تر: محمّد يحياتن، دار القصبة للنّشر، الجزائر: 2003. من ص11 إلى ص14.